

## صورة المرأة الغربية في الخطاب الروائي الإيديولوجي

د. جودي فارس البطاينة

قسم اللغة العربية / كلية الآداب

جامعة جرش الأهلية

المملكة الأردنية الهاشمية

القبول

2011 / 11 / 21

الاستلام

2011 / 10 / 30

### Abstract

We can say that the Arabic novel has formed the image of Western woman in the frame work of the novelist vision from various angles; political, economical, cultural and Ideological concentrating on the relationship between the orient man and the wetern woman, as the customary relationship (between East and West) in the Arabic Novel which is sexually oriented. Accordingly the image of Eastern man as he finds himself in the west he searches with a great desire for the western woman. This traditional vision for the relationship between them tempted the researcher to study it. Jordanian novels as a model during the seventeenth and afterwards of the 20<sup>th</sup> century, concentrating on the most novels that embody such a relationship as represented in the novel "A night in the train" by Eisa Al Nauouri

### ملخص البحث

يمكن القول إن الرواية العربية قد شكلت صورة المرأة الغربية، في إطار الرؤيا الذاتية للكاتب، و لاسيما في سنوات ما بعد السبعينيات من نواح متعددة سياسية، و اقتصادية، و ثقافية، و إيديولوجية، مع بروز العلاقة التي تربط بين الرجل الشرقي، و المرأة الغربية إذ تعد العلاقة المعهودة (الشرق و الغرب) في الرواية العربية علاقة "تجنيس"<sup>1</sup> وبموجبها تكون صورة الرجل

<sup>1</sup> لبيب، الطاهر (تحرير)، "صورة الآخر العربي ناظراً و منظوراً إليه"، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت 1996، ص38. و انظر دلال البزري "الآخر أو الجانب الملعون" ضمن كتاب "صورة الآخر ناظراً و منظوراً إليه"، ص105.

الشرقي "بمجرد أن تطأ قدماه أرضاً غربية حتى يبحث فيها بلهفة خاصة عن امرأة غربية"<sup>2</sup> ولعل هذه النظرة النمطية للعلاقة بينهما استدعت الباحثة لتقصي هذه العلاقة في نماذج من الروايات الأردنية، في فترة السبعينيات من القرن العشرين، مركزة على أكثر الروايات تجسيدا لهذه العلاقة، إذ تمثلت في رواية "ليلة في القطار" لعيسى الناعوري<sup>0</sup>

### صورة المرأة الغربية في الخطاب الروائي الإيديولوجي<sup>3</sup>

من بين أقدم الروايات في الأردن، تركيزاً على الأنموذج الأنثوي الغربي، رواية (ليلة في القطار) إذ نجد في صورة العنوان عتبة لدخول النص، ومن ثم فإن لها سيميائيتها التي تتغلغل داخل المتن الروائي و تجسده، فتكون "المفتاح الذي يمدنا بمجموعة من المعاني التي تساعدنا في فك رموز النص"<sup>4</sup>، لأن الليل يأتي بالهدوء و السكينة و الراحة، و حديث النفس و الرحلة عبر الذات و هو ستر و غطاء في الوقت نفسه يقول سعيد كيف أقضي (الليل كله في حجرة منفردة مع امرأة جميلة غربية، وحيدتين، تنير الليل و الوحدة و السكون نوازع الجنس حادة عنيفة في نفسينا..)<sup>5</sup> و لعل الكاتب هنا يحمل هذا النص (العنوان) صورة هذه الليلة المقرونة بمكان محدود بحجرة في "القطار" طبيعته لا تسمح بالحركة. فما الذي جعل الروائي يختار القطار؟ فقد حاول الروائي عبر "الميتاقص"<sup>6</sup> معالجة إشكالية قديمة<sup>7</sup> حديثة، ألا و هي النظرة النمطية للأنموذج الأنثوي الغربي، يقول سعيد (الشرق)، عبر مونولوج داخلي تشبعت به الرواية" و الذين يجيئون من بلادي إلى الغرب، ألا يجيئون و أول برامجهم هو المرأة.. الحرية الجنسية.. الهرب من الكبت و من الرقابة الاجتماعية الصارمة؟<sup>8</sup>

<sup>2</sup> البزري، دلال، الآخر أو الجانب الملعون، ص106.

<sup>3</sup> الإيديولوجيا تعني نسقاً من الأفكار و النظريات السياسية و الحقوقية و الدينية و الأخلاقية و الجمالية و الفلسفية، المعجم الفلسفي المختصر، دار التقدم، موسكو، ترجمة توفيق سلوم، 1986.

<sup>4</sup> حمداوي، جميل، السيموطيقا والعنونة، عالم الفكر، الكويت، مج25، ع23، يناير / مارس 97، ص90.

<sup>5</sup> الناعوري، عيسى، ليلة في القطار، منشورات دار فيلادلفيا، عمان، الاردن، ط1، 1974، ص46.

<sup>6</sup> ينطلق الميتاقص من كونه قصاً واعياً ذاته، أي أن الرواية الميتاقصية تعرض بتباه كما يؤكد ذلك روبرت الترو وضعتها المصنعة كيما تسبر غور العلاقة الإشكالية بين ظاهر حقيقتها المصنع و الواقع ذلك أنه لاتقوم بمحاكاة الواقع المباشر، إنما تعي وجودها عبر تفنيد وعي ما بواقع ما فهي تحاور واقعها الخاص، و من هنا فغنى كيانها النوعي لا يكتمل إلا حين تعي و عيها لمادتها المشكلة.

خريس، أحمد، العوالم الميتاقصية في الرواية العربية، دار أزمنة، للنشر و التوزيع، عمان، ط1، 2001، ص3.

<sup>7</sup> ركزت الروايات العربية على هذا الأنموذج منذ ثلاثينيات القرن العشرين مثل رواية "عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم 1938، رواية "تقديلا ام هاشم" ليحيى حقي 1944، و رواية "الحي الاتيني" لسهيل إدريس 1955م.

<sup>8</sup> الناعوري، عيسى، ليلة في القطار، ص145.

لقد أضاء تمازج المنولوج الداخلي، في أغلب صفحات الرواية، مع استخدام الأسلوب الإنشائي الفكرة، وأكسبها بعداً نفسياً يتشارك به الملتقي مع الروائي، نابعاً من إيديولوجية الكاتب العلمانية، حيث يحاول أن يثير الشك لدى المتلقي بواقعه، ليمرر بعد ذلك الترويج إيديولوجيته بأسلوب خبري إذ يقول: "لقد عرفت رجالاً كثيرين.. حديثهم عن رحلاتهم في الغرب يقتصر على مغامراتهم العاطفية.. على النساء اللاتي استمتعوا بأجسادهم بحرية و شراهة و نلوم الغربيين على حريتهم!.. و في أحاديثنا مع بعضنا البعض ندعو حرية الغربيين خلاعة، و تهتكاً و فجوراً، و انحلالاً خلقياً.. لأنهم صريحون مع أنفسهم، صادقون مع رغباتهم.. لا يتكتمون و لا يخجلون مما يفعلون بينما نحن في الواقع أكثر منهم خلاعة و انحلالاً بما نمارسه سراً من علاقات محرمة لا يقرها ضميرنا ولا ترضاهم أخلاقنا و لا تحلها الأديان السماوية التي نتاجر بها بأظهارنا التمسك بها والغيرة عليها)<sup>9</sup> هذا المنولوج الداخلي كان قد سبقه حوار مكثف بين الأنموذجين (أنموذج الشرق سعيد) رمز الأخلاق، و الاستقامة، والمثل العليا، والتمسك بعادات الشرق من خلال كفته لشهواته، يقابله (إنموذج الغرب لوشيا) رمز الجمال و الفتنة و الإغواء و المحاجة العقلية، في الدفاع عن نمط الحياة الغربية<sup>0</sup>

"(تقول لوشيا لسعيد): إذا كانت العملية الجنسية حاجة ملحة من حاجات الجسد، كالطعام، و الشراب، و النوم، و النزهة، والرياضة، و الاستحمام، كما تعترف أنت نفسك بذلك، و هذه كلها يشترك بها الحيوان و الإنسان، على السواء، دون تنظيم أو سمو - على حد تعبيرك! - فما معنى اقتصار التنظيم و السمو، و التنظيم بين الإنسان و الحيوان، على هذه العملية وحدها، دون حاجة بقية الجسد، مع أنها أقوى في الإنسان و الحيوان من أية حاجة جسدية أخرى)<sup>0</sup>

- (يقول سعيد): لأن الإنسان في مختلف أدوار التاريخ جري على تمييز نفسه عن الحيوان، و كذلك حثت جميع الأديان على تنظيم عملية الجنس و التناسل، بواسطة الزواج الذي جعلت منه رباطاً مقدساً - و الحيوان لا يعرف رباطاً مقدساً - يربط الزوج بزوجه، و الأب و الأم بابنائهما، ليعرف الأب أبناءه و الابن أبويه، و تعرف الزوجة رجلها و رفيق عمرها، و تتعاون معه على تنشئة نسلهما بحنان و رعاية<sup>0</sup> و لولا ذلك لما كان هناك فرق بين المجتمع البشري و المجتمع الحيواني، و لما استطاع إنسان أن ينتسب إلى أبويه!

- أنت خيالي أكثر مما يجب. إن كلامك جميل في تنميته، و لكنه بعيد عن تقدير الواقع! و قد شبع مجتمعنا العصري من الكلام المنمق و الخيال الجميل! إن عالمنا يعيش واقعه و حاجات نفسه و جسده، ولا يستطيع ان يعيش على ما اعتاد الناس بالمثل العليا، فالمثل العليا كلام جميل، ولكنها لا تزيد عن كونها "كلاماً"! و أما حاجات الجسد فتبقى حقائق واقعية نحسها، و نعيشها، ونعانيها! ثم صممت قليلا و عادت بعد ذلك تستأنف حديثها:

<sup>9</sup> الناعوري، عيسى، ليلة في القطار، ص145.

إذا كنت احس بالجوع فلا يغنيني شيئاً أن تقول لي كما قال الإنجيل: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله!" الكلمة - أية كلمة- لا تشبع و لا تسد جوعاً ولا تملأ معدة فارغة! و كذلك إذا أحسست بوفرة الشهوة في ليلة مثل هذه أراني فيها وحيدة مع رجل في حجرة واحدة مغلقة، مسدلة الستائر، و في وسط الليل الذي يثير كوامن الجسد، فلا يوقف ثورة جسدي و تأجج الجوع الجنسي أن تحدثني عن تنظيم العملية الجنسية، و الرباط المقدس، و السمو، و النسل، و غير ذلك!<sup>10</sup> ويعقب سعيد، عبر المنولوج الداخلي، على حديثها:

"لقد كان كلامها متدفقاً عنيفاً، و كانت تدافع بحرارة عن مفهومها المادي الشهواني للأخلاق، الذي يغيّر كل ما ألفته في بلادي، و كل ما عشت حياتي على الإيمان به. و لكنها قالت الحقيقة حينما أشارت دون موارد إلى نضالي العنيف لكبت شهوتي، و ذكرت أنني لست أقل منها حاجة إلى تهدئة أعصابي وثورتي الجنسية المشبوبة"<sup>10</sup>

بعد هذه المقارنة بين مفاهيم سعيد و مفاهيم لوشيا (الشرق، الغرب) في طرحهما لأكثر القضايا حساسية في المجتمع الشرقي، يستتبط الراوي (سعيد) نتيجة نابغة من تجاربه، و يجاهر بها بأسلوب تقرير مباشر بعيداً عن المراوغة، فيقول "كلنا يشكو من الكبت و الحرمان.. كلنا يعرف انتشار الشذوذ الجنسي في بلادنا، و يعرف أسبابه.. والشذوذ الجنسي عندنا متعدد الوجوه متعدد الألوان، لأن الشهوة الجنسية لا بد لها من التنفيس بشكل من الأشكال، إن لم يكن مع الجنس الآخر فمع الجنس نفسه، و إن تعذر هذا أو ذاك، فمع غير الجنس البشري"<sup>12</sup> و هذا ما أكدت عليه دلالة البزري، و نقلته عن إدورد سعيد عند حديثها عن السمات المعرفية بالآخر، و منها "الجنسنة"<sup>13</sup>.

هذا الحوار فيه كثير من المحاجة العقلية النابعة من منطق و جودي علماني، فطبيعة الزمكان لا تسمح بتشتت الأفكار. و فيه مواجهة مباشرة، و وقت يسمح لمناقشة الأفكار، دون قيود أو مراقبة أو تطفل الآخرين عليهم، و خاصة أن مكان الالتقاء على أرض الغرب في إيطالية بالإضافة إلى أن الزمكان هياً بيئية مليئة بالأغواء الغربي (لوشيا)، و رصد ردة فعل الشرق (سعيد) من خلال مناقشة لأكثر المواضيع حساسية لدى الشرق (الجنس)، فالعنوان يشكل "لحظة تأسيس"<sup>14</sup> الوعي لدى القارئ. و بالنص يتم تثبيت هذه اللحظة أو كسرها.

<sup>10</sup> (الناعوري، عيسى، ليلة في القطار، مصدر سابق، ص 88-90).

<sup>11</sup> (الناعوري، عيسى، ليلة في القطار، مصدر سابق، ص 90).

<sup>12</sup> (الناعوري، عيسى، ليلة في القطار، مصدر سابق، ص 146).

<sup>13</sup> -"الجنسنة" تعني الانكباب على وصف الشهوانية المفرطة التي للشرق، و الممارسات الجنسية الشاذة التي للعرب،

بحسب (فلوبير) حيث يمكن عندهم الخوض في كافة أنواع التجارب الجنسية المحرمة في الغرب، دلالة البزري، الآخر

أو الجانب الملعون، ص 105. !.

<sup>14</sup> (قطوس، بسام، سيمياء العنوان، إريد، مكتبة كتاني، 2001، ص 39)

وهذه المحاجة ليست إلا محاولة لتصدير إيديولوجية الروائي الوجودية، تجلت من خلال زعزعة الثوابت، وهنا تخرج الرواية من نطاق الرواية التقليدية إلى "الرواية الجديدة" على رأي جريبه في الرواية الجديدة "التي تقدم الأحداث مشكوكاً فيها، وتقدم العمل الفني كمشروع يتعاون القارئ والمؤلف، في بنائه"<sup>15</sup>.

يلاحظ أن الرواية بأكملها محاولة لتمرير فلسفة سارتر الوجودية<sup>16</sup>، التي طغت على الرواية، من خلال تقديم إيماءات أشرنا إليها سابقاً، مع إفساحها المجال للتفكير بأدق التفاصيل، التي تخطر على بال أي نموذج، حول أفكار الآخر ومعتقداته، و لذلك يلاحظ انتشار الأساليب الإنشائية الاستفهامية، عن الحياة التي يعيشونها، في محاولة من الروائي لتحطيم الجمود، و التزمت و الإزدواجية في "اللاشعور"<sup>17</sup> للعقلية الشرقية، مع التمسك بمنظومة القيم الأخلاقية بعيداً عن الأنموذج الأنثوي الغربي، في حرته المطلقة في التعبير عن أدق أحاسيسه، دون روابط، حتى وصلت به مرحلة الابتذال.

وهذه الأفكار بارزة و طاغية على صفحات الرواية، و يمكن استنباطها بيسر. و تبدو الأفكار "ذات طبيعة كلية أو كونية، و هو أمر يذكر بمفاهيم أرسطو عن المعاني الكلية أو الكونية التي دفعته إلى الحديث عن العام و الشمولي، و إغفال الخاص و الجزئي"<sup>18</sup>. وعلى الرغم من رفض الأنموذج الشرقي (سعيد) لإغواء أفكار الأنموذج الغربي (لوشيا) في الظاهر إلا أن مونولوجاته الداخلية لا تتم إلا عن إعجاب بالغرب، و ترجيح لفكرهم، فما هو يقول "لقد كان صحيحاً إلى حد بعيد، فالمجتمع الشرقي يحد الحرية الفردية، و حياة الشرقيين مملأ بالعقد النفسية الناجمة عن الحرمان الجنسي ... و الحرية الجنسية التي يمارسها الغربيون دون تستر يمارس مثلها الشرقيون سراً، كلما اتاحت الفرصة لممارستها... و كم ممن يتبجحون في العفة و هم زناة أرجاس!"<sup>19</sup>.

<sup>15</sup> جريبه، آلن روب، لقطات، ترجمة عبد الحميد ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ص24.

<sup>16</sup> الوجودية بالمعنى العام إبراز قيمة الوجود الفردي، و بالمعنى الخاص هو المعنى الذي عرضه سارتر في كتاب الوجود والعدم. و خلاصة هذا المذهب قول سارتر إن الوجود متقدم على ماهية و إن للإنسان مطلق الحرية في الاختيار، يصنع نفسه بنفسه و يملأ وجوده على النحو الذي يلائمه، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية و الفرنسية و الانجليزية و الاتينية، جميل صليبا، بيروت، لبنان، دار الكتاب اللبناني، ج 2، 1982، ص565  
إن منطلق الوجودية عند سارتر يتمثل "بأعادة الاعتبار الكلي للإنسان و مراعاة تفكيره الشخصي و حرته و غرائزه و مشاعره و يقول سارتر بحرية الإنسان المطلقة و عليه أن يثبت وجوده كما يشاء دون أن يفقده شيء و، و يعتقد بأن الأديان و النظريات الفلسفية التي سادت خلال القرون الوسطى و الحديثة لم تحل مشكلة الإنسان".

<sup>17</sup> اللاشعور هو "المضمون للوعي الجماعي اي جملة احباطات الذات الجماعية و رد فعل هذه الذات على تلك الاحباطات ابتغاء تجاوزها، و ذلك بوصفها المعوق الرئيسي للسيرورة التاريخية، هذا المعوق الذي ما لم يم تحطيه فإن روح الجماعة ستظل موجوعة"، يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، دار بيروت، ط2، 1982، ص117-118.

<sup>18</sup> الماضي، عزيز شكري، التصور و التصوير في روايات عيسى الناعوري، ص2.

<sup>19</sup> الناعوري، عيسى، ليلة في القطار، ص112.

و لإعطاء صفة الواقعية للأنموذجين، اعتمد الراوي السرد. بضمير المتكلم، لما فيه "من حميمية و بساطة و قدرة على تعرية النفس من داخلها، عبر خارجها"<sup>20</sup>. و يبدو أن الإعجاب بفلسفة سارتر الوجودية حاضر من بداية الرواية حتى نهايتها<sup>0</sup> ومن الجدير بالذكر أن نظرة الشرقي إلى المرأة الغربية نابعة من عوامل عدة منها: البيئة التي تربي فيها هذا الشرقي، والقيم والمبادئ التي استقاها منها، فضلاً عن الدين الذي يعتنقه، ومن ثم عمق هذه المبادئ في نفسه، ودرجة اعتقاده بها، والعامل الأساسي، فيما أرى، يكمن في المستوى الثقافي ومستوى التفكير، والتحضر لدى الفرد، لأنه يلعب الدور الأكبر في تحديد النظرة إلى المرأة الغربية، وجراء ذلك كانت الرواية بحثاً مستمراً عن الحقيقة، وكان ميدان بحثها هو "العالم الاجتماعي على الدوام، ومادة تحليلها هي دائماً آداب السلوك بوصفها إشارات لاتجاه روح الإنسان"<sup>21</sup>.

ولا بد من الإشارة هنا إلى وجود انبهار فكري، في نظرة المرأة الغربية للشرقي، في الروايات الأردنية وهذا الانبهار نابع من المرجعيات القرائية والمعرفية للشخصية؛ وقد ظهر مثل هذا الانبهار، في رواية "ليلة في القطار" للناعوري، من خلال تفاجؤ "لوشيا" الإيطالية من التصرفات الملتزمة لسعيد الشرقي، ومن معرفته لعدة لغات<sup>22</sup>. لأنها قرأت كتاب "ألف ليلة وليلة" وانبهرت بالحياة الحرة الجميلة التي يصورها والتي تنافي تصرفات<sup>23</sup> فمثل هذا الانبهار من قبل "لوشيا" مبرر لأنها لم تتصور وجود مثل هذه التصرفات في البلاد الشرقية؛ لأن أكثر الصفات إصاقاً بالشرق في القراءات الغربية هي "الاستبداد... والثقافة الممانعة لشتى ألوان العقلانية، والنظام السياسي المتأصل على استلاب الحرية... والممارسات الجنسية الشاذة"<sup>24</sup>.

فالرواية في الظاهر تنم عن رفض الناعوري لهذه الأفكار، ولكن عند التمعن برودة فعل سعيد على هذا الأمر، نكتشف العكس، فهو اندهاش يتضمن الإعجاب بالجرأة والحرية في العرض لقضاياهم، وهي حرية غير موجودة في الشرق ولو على مستوى التعبير عنها بالكتابة الرمزية؛ ولهذا يقول الروائي في مقدمة الرواية: "على الرغم من كل ما قد يقوله المتزمتون، وما قد ينتدر به الساخرون، من أنني تخليت عن الوقار في كهولتي... أردت أن أقدم عملاً روائياً يتميز بالصراحة، وبالجرأة -ربما غير المألوفة عندنا- في معالجة المفاهيم والتقاليد والأخلاق، وفي المقارنة بين البيئتين الشرقية والغربية، بين الجمود والتزمت، والحرية والتحلل، بين التمرد والتشدد، وبين الرياء والصراحة"<sup>25</sup>.

<sup>20</sup> مرتاض، عبد الملك، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، عدد4، 1998، ص93.

<sup>21</sup> محمود، حسني، سداسية إميل حبيبي: الرؤية والدلالة، مجلة أفكار، العدد ، نيسان 1994، ص56

<sup>22</sup> انظر الناعوري، عيسى، ليلة في القطار، مصدر سابق، ص44 0

<sup>23</sup> انظر الناعوري، عيسى، ليلة في القطار، مصدر سابق، ص86.

<sup>24</sup> البرزي، دلال، الآخر أو الجانب الملعون، ضمن كتاب "صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه"، ص104-105.

<sup>25</sup> الناعوري، عيسى، ليلة في القطار، ص7-8.

ونجد الناعوري يكثر من وصف الشرق على لسان "لوشيا" بصفات مثل (الوهم، الخداع، الكذب)<sup>26</sup> وفي التقديم للرواية قال "إن موقف البطل هو موقف الكذاب"<sup>27</sup>. ويستنفذ الروائي، من خلال الحوار، بين لوشيا وسعيد، كل ما يفكر فيه الشرقي من سيئات التحرر، ومحاولة الرد عليها، على لسان لوشيا، من ذلك مناقشة سعيد لها في أهمية الالتزام الجنسي في تمييز الإنسان عن الحيوان؛ "لأن الإنسان في مختلف أدوار التاريخ جرى على تمييز نفسه عن الحيوان، وكذلك حثت جميع الأديان على تنظيم عملية الجنس والتناسل بواسطة الزواج، الذي جعلت منه رباطاً مقدساً، ليعرف الأب أبناءه والابن والديه، وتعرف الزوجة رجلها ورفيق عمرها... ولولا ذلك لما كان هناك فرق بين المجتمع البشري والمجتمع الحيواني، ولما استطاع الإنسان أن ينتسب إلى أبويه"<sup>28</sup>.

فأجابت لوشيا: إذا "كنت أحس بالجوع فلا يعنيني شيئاً أن تقول لي كما قال الإنجيل: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله" الكلمة أي كلمة -لا تشبع ولا تسد جوعاً، لا تملأ معدة فارغة! وكذلك إذا أحسست بفورة الشهوة في ليلة كهذه"<sup>29</sup>. لأن العملية الجنسية برأيها حاجة "ملحة من حاجات الجسد، كالتعام، والشراب، والنوم، والنزهة، والاستحمام، وهذه كلها يشترك فيها الحيوان والإنسان، على السواء، دون تنظيم أو سمو -على حد تعبيرك!- فما معنى اقتصار التنظيم والسمو، والتميز بين الإنسان والحيوان على هذه العملية وحدها دون بقية حاجات الجسد"<sup>30</sup>

ويلاحظ أن هذه الأفكار والآراء منتشرة في الرواية، وهي، كما قلنا، تتم في الظاهر عن رفض لأفكار الآخر، ومن ناحية رمزية تتم عن إعجاب به، وخاصة في تركيزه "على انتقاد العادات الشرقية، التي يكشف حديثه عنها إنه "مهزوم" في الداخل ويدافع عن قضية خاسرة"<sup>31</sup>. ولكن يبقى سؤال: ما مبعث هذا الإعجاب؟ وما السبب فيه؟ وهل يولد فجأة، دون دراسة أو تعامل مع الآخر عن قرب، أو عبر الكتب، أو أية وسيلة أخرى؟ وما المنهج الذي يعبر عنه الناعوري؟ يمكن القول إن للمنهج الوجودي<sup>32</sup> أثراً كبيراً في روايته، بما يحمل من دعوة لانفصال الإنسان عن كل القيم، التي تكبله وتسيطر عليه، سواء كانت سماوية أو أرضية، فهو يدعو "لوجود إنساني مستمر"<sup>33</sup>

<sup>26</sup> انظر المصدر نفسه، ص126، 135، 136، 139، 142، 148.

<sup>27</sup> المصدر نفسه، ص9.

<sup>28</sup> المصدر نفسه، ص89.

<sup>29</sup> المصدر نفسه، ص89.

<sup>30</sup> الناعوري، عيسى، ليلة في القطار، ص88.

<sup>31</sup> الكركي، خالد، الرواية في الأردن، مطبعة كتابكم، عمان، الأردن، 1986م، ص129.

<sup>32</sup> تعد الوجودية أبرز تيارات الفكر الأوروبي التي صاغت "المصير الإنساني" بعد الحرب على ضوء -الظلام- الدمار الذي شهده الجيل العربي فيما بين الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية و الفرنسية و الانجليزية و الاتينية، جميل صليبا، بيروت، لبنان، دار الكتاب اللبناني، ج 2، 1982، ص565.

<sup>33</sup> مجاهد، مجاهد عبدالمنعم، الاغتراب في الفلسفة المعاصرة، سعد الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1985م، ص19.

وقد يكون لسقوط الحلم العربي، في هزيمة 1967م، "وما تلاها من زعزعة الإيمان القومي - والتوق إلى التفلت من إسار النظرة السائدة إلى الذات، في علاقتها بنفسها وعالمها"<sup>34</sup> أثر كبير في روايته يتمثل في تركيزه على قضية الحرب والجنس في الرواية. تقول لوشيا: "أتعرف؟ الحرب لا ينتصر فيها المحاربون بخنق الشهوة في نفوسهم... لا ينتصرون بقتل رجولتهم: المحاربون أكثر الناس حاجة إلى الترفيه وإشباع الشهوة"<sup>35</sup>.

وأهمية الحرية الجنسية، برأي "لوشيا" تكمن في أنها حلت جميع العقد النفسية في المجتمع الغربي، فاستطاع الغربيون أن ينصرفوا إلى الإبداع في جميع الحقول: في العلوم والصناعة، والاختراع، والثقافة، والفنون، والعمران، وفي مختلف شؤون الحياة"<sup>36</sup>.

ويبدو أن الناعوري تأثر بانتفاضة الطلاب في فرنسا عام 1968، على خلفية المشهد الستيني العربي تلك الانتفاضة التي امتد أثرها إلى العالم بأسره "لأنها كانت تقوم في أفكارها، على رفض "الواقع المزيف، عن طريق رفض الثقافة التقليدية، والنقد المستمر للواقع الثقافي، والأساليب التي تدعمه، وكذلك رفض الواقع الاجتماعي نفسه من خلال الثورة عليه، وتحطيم جميع مظاهر القهر والتسلط المفروضة على الأفراد"<sup>37</sup>.

أما السبب في اختيار الناعوري لإيطاليا بالذات، لتكون ساحة لأحداث روايته؛ فهو عائد لكثرة قراءاته من الأدب الإيطالي والترجمة منه وسفره المستمر لها لحضور مؤتمرات<sup>38</sup>، فضلاً عن للصدقات التي تربطه مع أهلها. وبهذا يكون إعجاب الناعوري نابغاً من اطلاعه على ثقافة الآخر، من خلال تلمس معطيات الواقع، ومن خلال مسألة التأثير والتأثير بين الآداب العالمية<sup>0</sup> ولكن مثل هذه الآراء لها ما يسوغها في الأدب الغربي، فهي تعبر عن "أزمات نفسية وأخلاقية تعرض لها المجتمع الغربي، لا سيما بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، ولا يوجد ما يسوغها في المجتمع الشرقي، فقد جاءت بعيدة عن عادات الشرق وتقاليده، وإن وجدت فهي على مستوى أفراد، ولم تكن تعبر عن هموم جمعية، أو تخص مرحلة حضارية عامة، فهي في الأغلب "تأثرات ثقافية فرضت نفسها على الأديب، بمعزل عن الظروف الاجتماعية والمعطيات التاريخية التي تمر بها بلاده"<sup>39</sup>.

<sup>34</sup> خريس، أحمد، العوالم الميثاقية في الرواية العربية، مرجع سابق، ص100.

<sup>35</sup> الناعوري، عيسى، ليلة في القطار، مصدر سابق، ص86.

<sup>36</sup> الناعوري، عيسى، ليلة في القطار، مصدر سابق، ص111، وانظر ص122.

<sup>37</sup> خريس، أحمد، العوالم الميثاقية في الرواية العربية، مرجع سابق، ص100.

<sup>38</sup> شارك الناعوري في تسعة مؤتمرات بإيطاليا في سنة 1961، وفي 1966 مؤتمرين، وفي 1969، 1976 مؤتمرين، وفي 1977، 1979، 1983م.

وترجم روايتين إيطاليتين (فونتمارا ترجمها 1963، والفهد ترجمها 1973) وله كتاب عن الشاعر الإيطالي مونتالي (دراسة مع ترجمات شعرية) 1976، وله كتاب دراسات في الشعر الإيطالي المعاصر 1978. وله كتاب دراسات في الأدب الإيطالي، سلسلة أقرأ، مصر، 1980، وله كتابان بالإيطالية من منشورات الجامعة العربية في روما. ونشرت له خمسة بحوث عن أدباء إيطال في مجلات متنوعة ونال العديد من الأوسمة تقديراً له على خدماته التي قدمها للأدب الإيطالي، ونال أيضاً الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة باليرمو في إيطاليا سنة 1976م.

انظر الناعوري، عيسى، ذكريات حياتي، 1980، مخطوطة، ورقة رقم 87 و 95-99.

<sup>39</sup> السعافين، إبراهيم، تطور الرواية العربية في بلاد الشام 1870-1967، ص445.



ومثل هذه الآراء تؤكد مخاوف (سيغوردن سكيرباك) الذي يرى "أن التهديد الحقيقي، ليس هو التهديد القادم من الغرب، بقدر ما هو تهديد الحداثة، وإن التهديد في هذا السياق هو في رأيي تحد عميق للثقافة التقليدية، وفي المنطقة العربية أكثر مما هو تهديد مباشر للسلطة السياسية أو الاقتصادية، إن التهديد الثقافي لا يأتي فقط من الخارج، بل يمكن أن تسببه الصعوبات الذاتية في معالجة تقاليد جديدة، ومن إعجاب المواطنين ذاتهم، وهكذا يصبح تهديداً من الداخل، فإن بقي الإنسان نفسه من هذا النوع من التحديات، أصعب بكثير من أن يقي نفسه من التهديدات الخارجية الملموسة"<sup>40</sup>

ونلاحظ أن الاتصال مع المرأة الغربية قائم ومستمر، ويجد إقبالاً سواء من الروائيين أنفسهم، أو من خلال بعض الشخصيات الموظفة في الرواية، التي لا تمثل رأي الروائي بالضرورة، ولكن تمثل فئة من المجتمع يرفضها الروائي، سواء رفض الروائي هذه الفئة أو قبلها، فهي شاهد على العصر، "نظراً لقدرة الرواية على استيعاب الواقع الاجتماعي والفكري والسياسي والاقتصادي... وقدرتها على حمل الهمّ الجماهيري عن طريق إقامة شبكة علاقات إنسانية في إطار فني"<sup>41</sup>

ويظهر تركيز بعض الروايات في الأردن على العلاقة التي تربط بين الرجل الشرقي بالمرأة الغربية..، إذ تعد العلاقة المعهودة (شرق/غرب) في الرواية العربية علاقة تجنيس<sup>42</sup> حيث تصور الرجل الشرقي، بمجرد أن تطأ قدماه أرضاً غربية، حتى يبحث فيها بلهفة خاصة عن امرأة غربية<sup>43</sup> ونميز في هذه العلاقة بين أمرين: (الانبهار والإعجاب) بالآخر فقد ظهر.

يؤكد الناعوري في "ليلة في القطار" مثل هذه الحقيقة، إذ يقول: "والذين يجيئون من الانبهار الجنسي بالغرب من خلال تصرفات أغلب العرب على اختلاف مستوياتهم الفكرية والعمرية لمحاولة تعويض ما يشعرون به من كبت واستلاب في بلادهم بلادي إلى الغرب، ألا يجيئون وأول برامجهم هو المرأة - الحرية الجنسية- الهرب من الكبت ومن الرقابة الاجتماعية الصارمة..؟ ألا يخفي الكثيرون منهم عن الغربيات حقيقة زواجهم وأبوتهم ليكونوا أكثر حرية معهن!"<sup>44</sup>

<sup>40</sup> (سكيرباك، سيغوردن، صورة الآخرين، المخاوف الحقيقية والكاذبة في العلاقات العربية الأوروبية ضمن كتاب صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص 551).

<sup>41</sup> (الناعوري، عوني صبحي، أثر السياسة في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999م، ص 145-146).

<sup>42</sup> (انظر لبيب، طاهر، مقدمة صورة كتاب "الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه" ص 38. وانظر البزري، دلال، "الآخر أو الجانب الملعون" ضمن كتاب "صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه" ص 105).

<sup>43</sup> (البزري، دلال، الآخر أو الجانب الملعون "ضمن كتاب صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه"، ص 106).

<sup>44</sup> (الناعوري، عيسى، ليلة في القطار، مصدر سابق، ص 145)

ظهر هذا الانبهار في الروايات، من خلال رفض الروائيين له، عبر تقديم لفئة من المجتمع تسعى إلى الجنس، بكافة الأشكال، سواء في إقامتهم في الغرب، أو إقامتهم في الشرق، فصورهم غالب هلسا في رواية (الضحك)، من خلال وجودهم في الشرق؛ فوضح انبهار بعض المراهقين، في المجتمع الشرقي، بالسائحات العوانس الغربيات، الباحثات عن "الجنس -جنة مراهقي البلدة وحتالاتها- وشاذون جنسياً"<sup>45</sup> ولم يقتصر هذا الأمر على المراهقين، بل على بعض كبار السن أيضاً. إذ قام بيسيوني الفرّاش الذي يناهز الستين عاماً، في رواية "الخماسين" بعرض سترتيتز أمام ابنة المدير الألماني كلارا، "التي تبلغ من العمر سبع سنين، وأعاد الأمر ثانية أمام أخيها هيرمان، الذي يبلغ من العمر عشر سنين"<sup>46</sup> وهذا العرض قام به "سرور" حارس المدرسة، في رواية "الزوبعة" في السر، عندما كان يشاهد غسل الممرضة اليونانية والطبيبة الإيطالية<sup>47</sup> وظهر الانبهار الجنسي، في رواية (بدوي في أوروبا)، بزيارة بعض مشايخ العرب للغرب، من أجل الجنس فقط، فيستغل اليهود ذلك بنشر دعايات سيئة عن العرب، بعد المبالغة فيها<sup>48</sup> وظهر أيضاً في رواية "الرحلة الثانية"، من خلال اتصال المخاتير بالنساء اللواتي يوفرهن لهم الإنجليز من أجل الحصول على أرضهم<sup>49</sup>. وهذا يؤكد قول دلال البزري، عند حديثها عن السمات المعرفية بالآخر، ومنها: الجنسنة وتعني: "الانكباب على وصف الشهوانية المفرطة، التي للشرق، والممارسات الجنسية الشاذة التي للعرب بحسب فلوبيير (Flaubert) حيث يمكن عندهم الخوض في كافة أنواع التجارب الجنسية"<sup>50</sup> المحرمة في الغرب"<sup>51</sup> وظهر ذلك عند المثقفين من الشباب، أيضاً ففي رواية "بدوي في أوروبا" أكد رشدي أحد الطلاب العرب، في ألمانيا لسويلم، أن كثيراً من الرجال العرب يذهبون للغرب من أجل النساء فقط، وظهر قبول رشدي بهذه التصرفات، بقوله، لسويلم في ألمانيا، "ما أنت عارف هناك (ناشفة) يا سويلم، والواحد عندما يأتي إلى هذه البلاد يتمتع قليلاً، وهناك في بلادنا محافظون جداً يا سويلم، لا يتركون للبنات حرية

<sup>45</sup> (هلسا، غالب، الضحك، دار المصير للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1981، ص 144.

<sup>46</sup> انظر هلسا، غالب، الخماسين، دار ابن رشد للطباعة والنشر، ط2، 1978 ص 205 - 211.

<sup>47</sup> انظر القاسم، زياد، الزوبعة، الجيل الثاني، ج3، دار الفارس للنشر والتوزيع، ط3، 1997 ص 186-187، ص 193-194.

<sup>48</sup> (حماد، جمعة، بدوي في أوروبا، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، ط2، 1986 م ص 198، وانظر ص 208-211.

<sup>49</sup> انظر المرشدة، عبد الرحيم، الرحلة الثانية، مكتبة كتاني، اريد، ط1، 1999، ص 44، ص 67، ص 95، ص 97.

<sup>50</sup> ميز الفيلسوف الفرنسي (ميشيل فوكو) بين الجنس والجنسانية فاعتبر الجنس مسألة عائلية بينما الجنسانية هي ممارسة الجنس خارج المؤسسات العائلية وجاءت كنوع من التمرد على النظام، النابلسي، شاكرا، مباحث الحرية في الرواية العربية، ص 146.

<sup>51</sup> (البزري، دلال، الآخر أو الجانب الملعون، ضمن كتاب صورة الآخر ناظراً ومنظوراً إليه، ص 105

الخروج مع أصدقائها، ولا توجد أماكن ينفس الشباب عن كبتهم. أنت فاهم، بلادنا لا تزال متأخرة وهذه بلاد راقية"<sup>52</sup>.

وقد يعود السبب في مثل هذا الانبهار، كما يقول خليل الشيخ: "إلى أن الخارج من كهوف القيود والسودد يبهر عينية أي ضوء، كان غير حاد، فكيف إذا واجهت عيناه ضوءاً شديد الإبهار"<sup>53</sup>، وظهر ذلك بوضوح في رواية المتميز " إذ يتحدث سامي، الذي ذهب للدراسة في ألمانيا، عن الطلاب العرب هناك في أثناء إقامته في بيت الطلبة: "أصبحت في مركز حياتهم، عجزت عن الفهم في البداية، لا وقت لدى أحدهم، مع أنه خالٍ تماماً من العمل، يأكلون وينامون، ويمارسون الجنس، وهذا كل شيء"<sup>54</sup> والسبب، في هذه الظاهرة المنتشرة، متفاوت من شخص إلى آخر، فقد كانت بالنسبة لسامي، كما قال: "أردت في البداية الحصول على امرأة اشتيتها - تحولت تلك الرغبة الجنسية إلى محاولة لملء الفراغ، فالمثل قد أصبح بعداً أساسياً وصلباً لحياتي، منذ وصلت إلى هذه البلاد، ومداعبة امرأة بنوع من الجدية قد يجدي"<sup>55</sup>.

وقد يكون هناك سبب خفي - وراء هذه الظاهرة، وهو التسليم بأن العلاقات، بين "الأمم والحضارات، هي كالعلاقة القائمة واقعاً بين الرجل والمرأة، علاقة قوة وتحكم وسيطرة"<sup>56</sup>. ولهذا يتعامل الشرقي مع الغربيات، في أغلب الأحيان بوصفهن مادة وليس روحاً فهن بالنسبة له مجرد تعويض عن نقص معين، قد يكون حرماناً من عطف وأمان، فيحاول الشرقي الإيواء إليها، ليشعر بالاطمئنان في غربته، أو محاولة منه تعويض القمع الجنسي، الذي عاشه في بيئته، من أجل إثبات الذات (رجولته)، ولهذا كانت علاقة سامي مع إيرما تروود، فتاة تدرس الأدب الإنجليزي في جامعة مونستر، علاقة جنس فقط. يقول سامي عنها "لم أجد فيها ما يشدني ولا أعرف ما الذي تجده في"<sup>57</sup>. وظهرت هذه العلاقة في رواية "الزوبعة"، من خلال حياة خالد الحجاج، في فرنسا"<sup>58</sup>.

كما ظهر هذا الاتصال عند المثقفين العرب في بلاد الشرق، إذ استطاع جرير تحقيق رغبته الجنسية من تريز اليونانية، في بيت الطبيبة الإيطالية، دون علمها<sup>59</sup> من هذا العرض، نلاحظ أن العلاقة، التي تربط بين الرجل الشرقي والمرأة الغربية، في أغلب الأحيان، علاقة جنس ومصالحة آنية، فلم تعامل المرأة بصفقتها روحاً إلا نادراً.

<sup>52</sup> حماد، جمعة، بدوي في أوروبا، ص 198، وانظر ص 208-211.

<sup>53</sup> خليل الشيخ، باريس في الأدب العربي الحديث، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، 1998، ص 9.

<sup>54</sup> عيد، محمد، المتميز، مطبعة الشرق ومكتبتها، عمان، 1978، ص 18.

<sup>55</sup> المصدر السابق، ص 33 0

<sup>56</sup> طرابيشي، جورج، شرق وغرب، رجولة وأنوثة، دار العودة بيروت، 1977، ص 37

<sup>57</sup> عيد، محمد، المتميز، ص 18-19.

<sup>58</sup> انظر القاسم، زياد، الزوبعة، الجيل الأولى، ج 1، ص 95، ص 99-100.

<sup>59</sup> انظر القاسم، زياد، الزوبعة الجيل الثاني، ج 3، ص 271-272.

ونجد في أحيان أخرى رفضاً وعداءً للمرأة الغربية، من خلال التعامل معها على أرض الواقع، سواء في الشرق أم في الغرب. ويتحكم بالنظرة لبعضهما، رفضاً أو عداءً، العادات والتقاليد والدين والثقافة والقومية التي تنتمي إليها الشخصية.

يظهر الرفض للآخر، في الرواية بوصفها جنساً أدبياً ونصاً قابلاً للتحليل، من خلال تتبع حركة الحدث والشخصية، ومدى علاقتهما بالواقع الاجتماعي، لأن هذا الجنس الأدبي له المدروسة هنا تبرز مسألة التخوف من الأنا أو من الآخر ورفضه بشكل جلي. بسبب وهم ارتباط واضح بمعطيات الحياة والوجود. ومن تتبع مسارات النص الروائي، مدار النصوص المدروسة هنا، تبرز مسألة التخوف من الأنا أو من الآخر، ورفضه بشكل جلي. بسبب وهم الفكرة المأخوذة عنهما، ففي رواية "جمعة القفاري" ظهر الاستخفاف بالآخر في الغرب، من خلال خداع نعمان الشرقي لنانسي الغربية، بتمثيله لدور شيخ قبيلة تهابها القبائل المنيعية، يقول نعمان عن هذا الموقف: "ومثل ثعلب صياد يرغب في اقتناص ضحية بريئة، انبعثت في أعماقي قوة شريرة ضيحية ترى في كل الحركات الخبيثة والمصطنعة والمزورة وسائل مشروعاً لاقتناص الضحية. شرحت لها بخبث وذكاء شرقي مراوغ... وأنا أكذب أنني أتيت إلى لندن كي أشاهد بأم عيني الاستلاب الحضاري المادي الرأسمالي. لأعود إلى أخوتي الشرقيين الذين وقعوا في فخ القيم المادية وشراك التلفزيون والإعلام الغربي... فأنقذهم من الوهم وأعود بهم إلى الفطرة النبيلة. كانت تتطلع إلي بذهول، وكنت أكذب وأسحب أفلاماً تذهلني. كنا مذهولين!"<sup>60</sup> هذا السياق يشير إلى ما يقترب من التأكيد، من تصوير الروائي لدور الشرقيين بتشويه صورة الشرق في الغرب، والمبالغة فيها. وكأن هذه الصورة قد تظهر من قبل أشخاص بسطاء، يحكمون على الآخر أحكاماً عامة ونمطية بعيدة، في أغلب الأحيان، عن الواقع، محصورة بتفكيرهم المقيد بأمور محددة، وبهذا يرى سويلم، في رواية "بدوي في أوروبا"، "أن الجمهور الألماني، في حقيقة، هو المعتوه، وهو الأحق، في نظر سويلم لأنهم لا يضعون موازين لفرحهم وسرورهم الذي يتساوى فيه شبيهه وشبانته"<sup>61</sup>.

مثل هذه الصور المبالغ فيها أثر، في بعض الأحيان، في العداء الموجه للشرق. هذا من ناحية نظرة الشرق إلى الغرب، في الروايات المدروسة. أمّا نظرة الغرب للشرق، ففيها استخفاف نابع من إحساسه بالتفوق، ففي رواية "الخماسين" استخفت "ليزا" بالشرقيين، على الرغم من تركها لبلادها وإقامتها في الشر<sup>62</sup>.

فالعلاقة التي تربط الشرق بالغرب قائمة، بشكل عام، على قاعدة غالب أو مغلوب، إذ يقول سيغوردين سكيرباك "إن كثيراً من صور الـ"هم" الأكثر غموضاً وتضارباً هي كاذبة سواء

<sup>60</sup> (الراز، مؤنس، جمعة القفاري "يوميات نكرة"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1990، ص120-121.

<sup>61</sup> (حماد، جمعة، بدوي في أوروبا، ص107.

<sup>62</sup> (انظر هلسا، غالب، الخماسين، ص118-124.

كانوا "هم" عرباً أو أوروبيين فقد يكون عامة الناس ضيقي الأفق في أفكارهم وتجاريمهم ولكنهم نادراً ما يقصدون مباشرة إلى الشر<sup>63</sup>.

وظهر رفض ارتباط الرجل الشرقي بالمرأة الغربية، أو ارتباط الغربي بالشرقية من خلال رواية "الضحك"، حيث رفض أهل القرية ارتباط مريم "بكلون أندرسون" إذ بقول الراوي لكلون الذي ارتحل وترك خطيبته مريم "هل تعرف ماذا سيحدث لتلك الفتاة؟ سيحتقرها الجميع وستعيش للأبد مبعدة إن أحداً لن يسامحها قط لأنها كانت ستتزوج إنساناً غريباً"<sup>64</sup>.

وهذا الأمر كان يقابل، عند الغرب أيضاً، بالرفض ولهذا السبب خدع كولن والدته، حين زعم أن مريم نصف أوروبية، وشكلها أوروبي تماماً... وبهذا حصل على موافقة أمه<sup>65</sup>.

وظهر رفض الارتباط بالزواج بين (الشرق والغرب) في بلاد الغرب، من خلال رفض أندرية في رواية "التميز" الارتباط بسعيد، وتخلصها من الجنين الذي تحمله منه، على الرغم من توفر العاطفة بينهما، تقول أندرية لسعيد، في رسالة له، "كان سيكون حدثاً سعيداً في حياتي في ظرف آخر، ولكن... كل منا سيعود إلى الحنين لموطنه، حينما يفكر عملياً بالاستقرار، إنك لن تتنازل، وكذلك أنا ولو أنني أقول هذا للمرة الأولى، سأتخلص منه ذلك المخلوق الذي سيأتي مشوهاً، فإذا فرض علينا أن نكون سبباً في إيجاد آخرين فلنهيء ظروفنا أولاً، سأتخلص منه كآخر أثر لك، وأنا أشعر بنزف في داخلي، لقد أحببتك ولا زلت، ولكن ذلك يجب أن ينتهي كممارسة، سأحوله إلى ذكرى... وأعرف مسبقاً ما الذي ينتظرنى بعد ذلك، لكنها مراهنه، ربما تتحول لصالحى بعد سنوات، وعلى أية حال فهي أفضل من أن تتقلب الأمور ونكتشف معاً أن حياتنا فارغة ويحقد كل منا على الآخر"<sup>66</sup>.

وظهر رفض العلاقات الأسرية الغربية، من قبل الشرق، ورفض للعلاقات الأسرية الشرقية، من قبل الغرب، فقد رفض سويلم وقومه العادات التي تجمع الغربيين مع بعضهم، فكان قوم سويلم "يحاولون أن يجدوا تفسيرات لهذه النظرية، حكم النساء للرجال، حين تتقدم المرأة أمام الرجل، فيقول جماعة سويلم لبعضهم: (أرأيت كيف تقوده)... ويتفرسون في تلك النسوة (وقلة حياتهن) ويقولون باشفاق (الله يساعد رجالهن)"<sup>67</sup>. ورفض سويلم عادة تقبيل أيدي النساء المنتشرة في الغرب فقال لسعيد معلمه "لا والله لا أفعها يا سعيد ولو قطعوا يدي"<sup>68</sup>. ورفض

<sup>63</sup> (سيغوردن سكيرباك، صورة الآخرين، المخاوف الحقيقية والكاذبة في العلاقات العربية الأوروبية ضمن كتاب صورة الآخر ناظراً ومنظوراً إليه، ص 554 .

<sup>64</sup> (هلسا، غالب، الضحك، ص 152.

<sup>65</sup> (هلسا، غالب، الضحك، ص 150.

<sup>66</sup> (عيد، محمد، التميز، ص 76.

<sup>67</sup> (حماد، جمعة، بدوي في أوروبا، ص 4.

<sup>68</sup> (حماد، جمعة، بدوي في أوروبا، ص 27.

سويلم اقترب أخوات عبدالله منه "وتمنى أن يكسر خيزرانتة على جسم كل واحدة تهتز على تلك الصورة للغريب!"<sup>69</sup>. وخاصة أن هذه الحركات تنتج من أخوات مضيفه، فقد "رأى سويلم مثل هذه الحركات من قبل ولكن الأمر لا يعنيه. أما اليوم، فإن الأمر يخص صديقه ومضيفه، فكان يغار على أخواته، وكأنهن شقيقات سويلم"<sup>70</sup>. يشعر هذا التعامل بحسن النية، في تعامل الشرق مع الغرب، فقد يوجد ارتباط بينهما، ولكن اختلاف العادات والتقاليد والحضارة يجعل الارتباط صعباً، ولهذا نجد سويلم يقطع زيارته لألمانيا ويعود لوطنه. ورفضت لوشيا الإيطالية في "ليلة في القطار" عادات الزواج في الشرق، لأنها تجد فيها "ضرباً من العبودية! دكتاتورية السلطة الزوجية للرجل على المرأة"<sup>71</sup>.

أمّا العلاقات الجنسية، التي تربط بينهما، فنجد رفضاً لها في الروايات المدروسة، ففي رواية "ليلة في القطار" رفض سعيد العلاقة التي تربط الشرق بالغرب من أجل الجنس"<sup>72</sup>.

ونجد، في مواقف أخرى، نظرة الإعجاب بالمرأة الغربية ظاهرة في الروايات المدروسة، تنم عن وجود علاقة روح تربط الشرقي بالمرأة الغربية، لتفهمها لقضاياها الحياتية، مثال ذلك إعجاب سعيد في "التميز" بأندريه لأنها تحمل أفكاراً مساندة للعرب، وتتعاطف معهم في جميع أمورهم السياسية، إذ تقول لسامي: "لا أدري حينما أسمع عما يدور في منطقتكم أو فينتام، تحضر إلى ذهني فوراً الصور التي كنت أراها في الأحرار، ربما كنا أكثر وحشية من تلك الحيوانات، أنها تكون شرسة حينما تجوع ولكننا شرسون والطعام يكاد يقفر من حلوفا"<sup>73</sup>. وهذا ما دفعه للتعلق بها، لمبادئها وثقافتها وطريقة تحليلها للأمور، بطريقة منطقية، بعيدة عن الانحياز، وأعجبه منها ملامحها الشرقية<sup>74</sup>، فتعلق بها تعلق الروح. كان يحبها كما يقول "دون أدنى شك"<sup>75</sup>، كانت تعطيه كل شيء دون أن تسأله شيئاً.

هذه العلاقة لم تستمر، وكأنها تأكيد على عدم التقاء الشرق بالغرب، وإن سنحت الفرصة للالتقاء الروحي بين شخصين، بسبب اختلاف العادات والتقاليد والمفاهيم، التي تمثل العائق الأساسي في وجه الارتباط، حتى وإن أقمع الإنسان نفسه بزوالها. فلا بد أن تتكشف مع مرور الأيام على الارتباط.

<sup>69</sup> المصدر نفسه، ص 183.

<sup>70</sup> المصدر نفسه، ص 183.

<sup>71</sup> المصدر نفسه، ص 183.

<sup>72</sup> الناعوري، عيسى، ليلة في القطار، ص 94 0

<sup>73</sup> عيد، محمد، التميز، ص 63-64.

<sup>74</sup> انظر المصدر نفسه، ص 39.

<sup>75</sup> المصدر نفسه، ص 68.

هذه النهاية للعلاقات التي لن تدوم تشبه نهاية بطل رواية "الحي اللاتيني"، من خلال الرسالة التي تركتها (جانين لسامي)<sup>76</sup>، فرواية "التميز" من ضمن الروايات التي تصور عدم النقاء بين (الشرق والغرب) برزت هذه الفكرة من خلال الرسالة التي هي من قناعات الروائي التي تولدت نتيجة معاشته للآخر في أرض الواقع<sup>77</sup> ومن خلال الانخراط في ثقافته وتلمس بعض الجوانب التي يستشعر الشرقي إنه بحاجة لها أو له وجهة نظر مغايرة لها. وقد يكون السبب في رفض الالتقاء بالآخر، طفولة الروائي وكون أهله من النازحين بعد نكبة 1948م<sup>78</sup>، إلى عمان، بعد سيطرة اليهود على بلده، وهذا واضح في روايته.

وظهر إعجاب سويلم، في رواية "بدوي في أوروبا"، بمريم الألمانية، بسبب أخلاقها وحشمتها، فعلى الرغم من أن سويلم، كما يقول الراوي: "لا يثق كثيراً بالنساء، فإنه أحس بشيء يرغمه إرغاماً على احترام هذه الفتاة اللينة الناعمة المحتشمة والقوية الأخلاق"<sup>79</sup>، ولهذا طافت برأسه فكرة أن يتزوجها لو رضيت، ولكنه استخف بالفكرة، بسبب اختلاف عاداته وعاداتها ووضعها. "فضحك من نفسه وهو يتساءل: هل تتزوجه لو خطبها؟... ثم تذكر... أين أبوها؟! وكيف تجلس معه وحدها؟ وابتسم مرة أخرى، وهو يقول لنفسه: تتزوجك يا سويلم وجميع ملابسك غيره..! وهنا عرضت له أم سليمان تهز رأسها وتحذره"<sup>80</sup>، والإعجاب في هذه الرواية متبادل، فقد كانت مريم تنتظر لسويلم "كئيب من أنبياء الشرق جاء في زيارة عابرة إلى بلادهم"<sup>81</sup>.

هذا الإعجاب نابع من إعجاب الروائي، بحد ذاته، يمثل هذه الفتاة، ولكن السبب في الإعجاب، وعدم الاتصال هو مرجعية جمعة حماد الدينية<sup>82</sup> قبل كل شيء، فهو ينظر للآخر بمنظور ديني اجتماعي. وما يؤكد ذلك تشابه الأمكنة في الواقع والرواية، لأن الروائي جمعة

<sup>76</sup> انظر: إدريس، يوسف، الحي اللاتيني، منشورات دار الآداب، بيروت، ط7، 1977، ص280-282 0

<sup>77</sup> أكمل محمد عيد دراساته العليا في ألمانيا حيث نال شهادة الماجستير في الرواية عام 1972، انظر نزيه أبو نضال، المتفقون العرب والغرب في ثلاث روايات أردنية، "التميز" لمحمد عيد ماذا تبقى لنا إذا فقدنا لغتنا؟! جريدة الدستور، الجمعة، 18 شعبان، 142هـ، 26 تشرين الثاني، 1999، ص 25.

<sup>78</sup> المرجع نفسه، ص 25.

<sup>79</sup> حماد، جمعة، بدوي في أوروبا، ص 212

<sup>80</sup> حماد، جمعة، بدوي في أوروبا، ص 207.

<sup>81</sup> المصدر السابق، ص 224.

<sup>82</sup> في لقاء شخصي مع الناقد نزيه أبو نضال حول مرجعيات بعض الروائيين قال عن جمعة حماد كان ملتزماً دينياً، وله كتب متنوعة منها "إشارات على طريق العمل الإسلامي" وكتاب "الوفاق الدولي، والصراع العربي الإسرائيلي"، 2002/3/19م.

حماد من أبناء النكبة، ومنطقة عوجا حفير التي دارت فيها بداية الأحداث في الرواية هي التي وُلد فيها جمعة حماد<sup>83</sup>.

مما تقدم من استقراء سلوكيات بعض الشخصيات في الروايات المشار إليها سالفاً، تبرز إشكالية العلاقة بين الأنا والآخر، من منظور توفيقى، حيث التماس بين شخص من الحضارتين والاسترسال في الحوار بينهما، يضيف على الأجواء جانباً من إمكانية التصالح، أو في الأقل، السعي إلى التصالح، بدل التصادم. والدليل على ذلك تبادل نظرة الإعجاب والانبهار بين كلا الطرفين، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل يصل إلى حد الزواج.

حيث نجد في بعض الروايات المدروسة أن الإعجاب يؤدي إلى معايشة لآخر للأنا في منطقتهم؛ ففي رواية "عمّتا" أقامت هيلين في منطقة "عمّتا" في بادئ الأمر، بسبب عملها بصفتها باحثة كندية، تقوم بدراسة اجتماعية ميدانية بمنطقة "عمّتا" في الأردن، تنفيذاً لتوصيات منظمة اليونسيف الدولية<sup>84</sup> حيث أفادت هيلين المنطقة، من ناحية اقتصادية، وثقافية، واجتماعية، من خلال نشرها في الصحف المحلية لبلادها حكاية رحلتها، وما تلقته من عناية ورعاية من أهل المنطقة، الذين ساعدوها في أثناء مرضها. وعلى أثر ذلك، قررت إحدى الجمعيات الكندية أن تنشئ مصنعاً حرفياً في عمّتا، استوعب عدداً كبيراً من الفتيات<sup>85</sup>، مما أفاد المنطقة اقتصادياً، فضلاً عن مساعدتها للأهالي، من ناحية اجتماعية، حيث أنقذت مروان زوج سعاد، بعد خطف راشيل اليهودية له، فلم تثق سعاد إلا بهيلين، لتخبرها برسالة مروان لها، وطلبه منها السفر بالسر إلى تركيا، وعدم إخبار أحد، فضغبت هيلين على سعاد للسفر، حيث طلب منها زوجها، وسافرت معها بالخفية<sup>86</sup> فقد كان لهيلين صديق دراسة، يعمل ملحقاً في السفارة الكندية في تركيا، ساعدها بتدبير الأمر: "عن طريق القنوات الرسمية مع البوليس التركي، الذي تابع العنوان المعطى إلى سعاد بسرية تامة. واكتشف أن هناك فرية أو قل شركاً! فلا يوجد شخص اسمه مروان... ووضعت الشرطة يدها على اللعبة، وأنقذت الأم وطفلها"<sup>87</sup> وتوثقت العلاقات الاجتماعية، عندما التقت هيلين بحماد الأسمر، فهامت به، كما يقول الراوي: "وأخيراً التقى الشاب العربي بالفتاة الكندية في بيت زوجي"<sup>88</sup>.

نجد في هذه الرواية كثيراً من التكلف والمبالغة، في طرح موضوعها، وأحداثها، وخاصة في مجتمع شرقي. ولكن على الرغم من ذلك، فإن الرواية طرحت فكرة جديدة بعض الشيء، وهي

<sup>83</sup> أبو نضال، نزيه، المثقفون العرب والغرب في ثلاث روايات أردنية. جريدة الدستور، الجمعة، 4 شعبان، 1420هـ، 12 تشرين الثاني 1999، ص 25

<sup>84</sup> انظر مناور، حسين، عمّتا، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، 1998، ص 162.

<sup>85</sup> المصدر السابق، ص 164

<sup>86</sup> انظر المصدر نفسه، ص 172-173.

<sup>87</sup> المصدر نفسه، ص 173.

<sup>88</sup> المصدر نفسه، ص 165.



اتصال الغرب بالشرق، دون أن تكون مصلحة من وراء ذلك، وهي نابعة من آمال بعض الشباب العربي المتفائل بمستقبل العلاقة بين، الشرق والغرب، بعيداً عن الاستغلال.

مثل هذه الملامح الاجتماعية، التي وُظفت في هذه السياقات الروائية، تشي بتكوين وجهات نظر لدى المتلقي عند القراءة، بحيث يقف بين أمرين، إما أن يتعاطف مع سلوكيات وتوجهات بعض الشخص، على حساب الآخر، أو يقف على النقيض من وجهات نظرهم، وهنا يتداخل النص مع خارجه، ويتداخل النص مع العالم، بحيث يحيل الكلام إلى مرجعية القارئ ومنشئ النص في آن واحد، ويبدأ التفاعل للأحداث تجاه النص.

ومما يلفت النظر أيضاً، في الروايات المدروسة، توطد العلاقة مع المرأة اليهودية، فقد رفض المحاسب الشامي "حسيب" في "الزوبعة"، وهو في أمريكا، العمل مع سليمان الفلسطيني، إلا إذا قَبِلَ سليمان المحاسب حسيباً مع صديقه اليهودية التي تربطه بها علاقة عاطفية فوافق سليمان على ذلك<sup>89</sup>. فالواقع يشي بوجود مثل هذه العلاقة التي تجربها دوافع وأهداف معينة.

وفي النهاية، نلاحظ بأن الانبهار بالمرأة الغربية لم يظهر من قبل الروائيين، بحدّ ذاتهم، ولكن من خلال بعض الشخصيات الروائية التي تصور فئة من المجتمع، وهو انبهار فردي بينما الإعجاب ينبع من الروائيين، وتتحكم بهذا الإعجاب إيديولوجية الروائيين.

وللبناء الفني أهمية خاصة في تفاعله مع الحدث، فلكل أسلوب من أساليب البناء الفني أدواته التي تتفاعل مع بعضها، لتجسيد رؤية الكاتب. ولكل أسلوب قدرة على جذب المتلقي، فقد تبين في الروايات مدار الدراسة: أن الواقع الجديد يحمل معه أشكالاً أدبية جديدة في بعض الأحيان، "إذ من غير الممكن تجسيد الواقع الجديد والتعبير عن الإحساس به من خلال أشكال مستهلكة"<sup>90</sup>، حيث ظهرت ملامح التغيير في البناء الروائي بشكل عام بعيد الحربين العالميتين، الأولى والثانية، وحمل لواء هذا التحول أعلام بارزون من الروائيين في الغرب، ولعل في طليعتهم أندريه جيد، وكافكا، وجويس، وهمنغواي، وانصب التحول على التدخل في البناء الكلاسيكي، ونقض الكثير من عناصره، فتمّ على سبيل المثال قلب الهرم المنطقي لتناول الأحداث وتسلسلها، وحطم الزمن الرياضي المنطقي، وسبر أغوار الشخص، واستبطان عوالمها الداخلية، فلم تعد الواقعية شائعة كثيراً، ولا الموباسانية<sup>91</sup> وقد بلغ التطور أوجه مع (أصحاب مدرسة الرواية الجديدة)<sup>92</sup>. الذين اعتبروا فيما بعد بأنهم (صوت المستقبل)، فقد ذكر الباحث نزار صبري أن السواد الأعظم من النقاد اتفقوا "على أن الرواية الجديدة قد تزامنت مع أزمة الرواية التقليدية. وأكد

<sup>89</sup> انظر القاسم، زياد، الزوبعة، الجيل الثاني، ط3، ص 229.

<sup>90</sup> سماحة، فؤاد كامل، رسم الشخصية في روايات حنا مينة، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، 1998، ص 27.

<sup>91</sup> نسبة إلى الروائي موباسان، يقوم فنه على دقة الملاحظة، ويختار نماذج من بين الناس البسطاء في الغالب، ويرى أن هدف الفن هو إعطاء صورة حقيقية للحياة، انظر كامل، نادية، الموباسانية في القصة القصيرة، مجلة فصول، المجلد الثاني، العدد الرابع، 1982، ص 187.

<sup>92</sup> أصحاب المدرسة هم: ميشيل بيتور وروبير بنجيه، وألن روب غرييه، وناتالي ساروت، وكلود سيمون.

الكثيرون أن الرواية الجديدة "صوت المستقبل" وأشار آخرون إلى أنها خطوة جديدة في الطريق نحو أدب المستقبل<sup>93</sup>.

استخدم أصحاب هذه المدرسة كصفات تعبيرية مختلفة، أشعرتنا بوجود ما يشبه الانقلاب على ما كان من أنماط سردية معتادة؛ فلم يعد التسلسل المنطقي للأحداث إشكالية، بل تدميرها، وبالتالي جذب المتلقي للنص والتساؤل حوله بعد أن كان يحوم حوله، ومن هنا يمكن فهم قول (بول ريكور) "يعني الحديث عن عالم النص التركيز على ملمح ينتمي إلى أي عمل أدبي، يفتح أمامه أفقاً لتجربة ممكنة، عالم يمكن أن يعاش فيه، فليس النص بالشيء المغلق على ذاته، بل هو مشروع كون جديد منفصل عن الكون الذي نعيش فيه، وامتلاك عمل ما من خلال القراءة، يعني نشر أفق عالم ضمني يحتوي على الأفعال والشخصيات وأحداث القصة المروية"<sup>94</sup>.

مثل هذا الفهم ناتج عن التفكير في تغيير طرائق السرد التقليدية، وهذا التغيير يقود إلى تغيير كصفات القراءة. وأصبح على كتاب الرواية العبء الأكبر في تغيير حركة الشخصيات والأحداث والزمان والمكان، لينتج عنه بالتالي تغيير وجهات النظر القرائية. هذه الثورة على التقليدية أمكن لها التأثير على الكتاب في العالم، لاسيما بعدما توضحت الصورة وأصبحت منهجاً، كما سلف، وعرفت بمدرسة الرواية الجديدة.

فالتأثر والتأثير في الآداب العالمية، ملمح حضاري وليس من السهولة بمكان إنكاره، فكيف إذاً يمكن لنا متابعة هذه المسألة في الأدب العربي، وفي الرواية العربية والأردنية تحديداً. إن البحث في هذه المسألة سيقودنا إلى اجترار الظاهرة من داخلها، بحيث نرصد مدى ما أصاب الرواية هنا، في الأردن من تغيير، يعود بمرجعيتها إلى ما أثارته رياح التجديد وهذا مثار اهتمام بحث آخر.

## المصادر والمراجع

- (1) أبو نضال، نزيه، المثقفون العرب والغرب في ثلاث روايات أردنية، "المتميز" لمحمد عيد ماذا تبقى لنا إذا فقدنا لغتنا؟! جريدة الدستور، الجمعة، 18 شعبان، 142هـ، 26 تشرين الثاني، 1999.
- (2) أبو نضال، نزيه، المثقفون العرب والغرب في ثلاث روايات أردنية. جريدة الدستور، الجمعة، 4 شعبان، 1420هـ، 12 تشرين الثاني 1999.
- (3) إدريس، يوسف، الحي اللاتيني، منشورات دار الآداب، بيروت، ط7، 1977.
- (4) جرييه، آلن روب، لقطات، ترجمة عبد الحميد ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985.

<sup>93</sup> ميشيل بيتور وآخرون، حوار في الرواية الجديدة، ترجمة نزار صبري، بغداد، دار الشؤون، 1988، ص9.

<sup>94</sup> ريكور، بول وآخرون، الوجود والزمان والسرد، ترجمة سعيد الغانمي، الدار البيضاء، 1999، ص47.

- (5) حماد، جمعة، بدوي في أوروبا، دار البشير للنشر والتوزيع، عمّان، ط2.
- (6) حمداوي، جميل، السيموطيقيا و العنونة، عالم الفكر، الكويت، مج25، ع23، يناير/ مارس 1997.
- (7) خريس، أحمد، العوالم الميثاقصية في الرواية العربية، دار أزمنة، للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2001.
- (8) خليل الشيخ، باريس في الأدب العربي الحديث، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمّان، 1999.
- (9) الرزاز، مؤنس، جمعة القفاري "يوميات نكرة"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1 1990.
- (10) ريكور، بول وآخرون، الوجود والزمان والسرد، ترجمة سعيد الغان.
- (11) السعافين، إبراهيم، تطور الرواية العربية في بلاد الشام 1870-1967.
- (12) سماحة، فريال كامل، رسم الشخصية في روايات حنا مينة، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، 1998.
- (13) طرابيشي، جورج، شرق وغرب، رجولة وأنوثة، دار العودة بيروت، 1977.
- (14) عيد، محمد، المتميز، مطبعة الشرق ومكتبتها، عمّان، 1978.
- (15) الفاعوري، عوني صبحي، أثر السياسة في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999.
- (16) القاسم، زياد، الزوبعة، الجيل الثاني، ج3، دار الفارس للنشر والتوزيع، ط3، 1997.
- (17) قطوس، بسام، سيمياء العنوان، إريد، مكتبة كتاني، 2001.
- (18) كامل، نادية، الموباسانية في القصة القصيرة، مجلة فصول، المجلد الثاني، العدد الرابع، 1982.
- (19) الكركي، خالد، الرواية في الأردن، مطبعة كتابكم، عمان، الأردن، 1986م.
- (20) لبيب، الطاهر (تحرير)، "صورة الآخر العربي ناظراً و منظوراً إليه"، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 1996.
- (21) الماضي، عزيز شكري، التصور والتصوير في روايات عيسى الناعوري.
- (22) مجاهد، مجاهد عبدالمنعم، الاغتراب في الفلسفة المعاصرة، سعد الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1985م
- (23) محمود، حسني، سداسية إميل حبيبي: الرؤية والدلالة، مجلة أفكار، نيسان 1994.
- (24) مرتاض، عبد الملك، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، عدد4، 1993.

- 
- (25) المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية و الفرنسية و الانجليزية واللاتينية, جميل صليبا, بيروت, لبنان, دار الكتاب اللبناني, ج 2, 1982.
- (26) المعجم الفلسفي المختصر, دار التقدم, موسكو, ترجمة توفيق سلوم, 1986.
- (27) مناور, حسين, عمّتا, دار الشروق للنشر والتوزيع, ط1, 1998.
- (28) ميشيل بيتور وآخرون, حوار في الرواية الجديدة, ترجمة نزار صبري, بغداد, دار الشؤون, 1988.
- (29) النابلسي, شاکر, مباحج الحرية في الرواية العربية.
- (30) الناعوري, عيسى, ذكريات حياتي, 1980, مخطوطة.
- (31) الناعوري, عيسى, ليلة في القطار, منشورات دار فيلادلفيا, عمان, الأردن, ط1, 1974.
- (32) هلسا, غالب, الخماسين, دار ابن رشد للطباعة والنشر, ط2, 1978.
- (33) هلسا, غالب, الضحك, دار المصير للطباعة والنشر, بيروت, ط2, 1981.
- (34) يوسف اليوسف, مقالات في الشعر الجاهلي, دار بيروت, ط2, 1982.
- 
- (35) <http://ar.wikipedia.org/wiki/>
-